دمية القصر

جاحظ نيسابور وزبدة الأحقاب والدهور . لم تر العيون مثله ولا أنكرت الأعيان فضله . وكيف ينكر وهو المزن يحمد بكل لسان أو كيف يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان وكنت أنا بعد فرخاً أزغب في الاستضاءة بنوره أرغب . وكان هو ووالدي رحمة ا عليهما بنيسابور لصيقي دار وقريبي جوار . فكم حملت كتباً تدور بينهما في الإخوانيات وقصائد يتقارضان بها في المجاوبات . وما زال بي رؤفاً علي حانياً حتى ظننته أباً ثانياً رحمة ا عليه كل صباح تخفق رايات أنواره ومساء تتلاطم أمواج قاره . ووجدت بعد وفاته مجلدة من محاسن أشعاره وفيها ثمار بيانه وعليها آثار بنانه . فالتقطت منها ما يصلح لكتابي هذا من أوساط عقودها وأناسي عيونها . فمن ذلك ما كتب به إلى الأمير أبي الفضل الميكالي يعاتبه : .

يا سيداً بالمكرمات ارتدى ... وانتعل العيوق والفرقدا .

مالك لا تجري على مقتضى ... مودة طال عليها المدى .

إن غبت لم أطلب وهذا سلي ... مان بن داود نبي الهدى .

تفقد الطير على شغله ... فقال : ما لي لا أرى الهدهدا .

ومن ذلك قوله : .

وسائل عن دمعي السائل ... وحال لوني الكاسف الحائل .

قلت له الأرض في ناظري ... أوسع منها كفة الحابل .

بليت وا بمملوكة ... في مقلتيها ملكا بابل .

فإن لحاني عاذل في الهوى ... يوماً فما العاذل بالعادل .

وأنشدني الشيخ والدي رحمة ا عليه قال : أنشدني لنفسه : .

ولو أنني أنصفت في إكرامه ... لجلال مهديه الكريم الألمع .

لقضمته حب الفؤاد لحبه ... وجعلت مربطه سواد المدمع .

وخلعت ثم قطعت غير مضيق ... برد الشباب لجله والبراقع .

وله : .

سقياً لعهد سروري ... والعيش بين السراري .

إذ طير سعدي جوار ... مع امتلاك الجواري .

وغيم لهوي مطير ... وزند أنسي وار .

أيام عيشي كعودي ... وقد ملكت اختياري .

أجري بغير عذار ... أجني بغير اعتذار .

وله في الشكوى : .

ثلاث قد منيت بهن أضحت ... لنار القلب مني كالأثافي .

ديون أنقضت ظهري وجور ... من الأيام شاب له غدافي .

وفقدان الكفاف وأي عيش ... لمن يمنى بفقدان الكفاف .

وله في معناه أيضاً : .

الليل أسهره فهمي راتب ... والصبح أكرهه ففيه نوائب .

فكأن ذاك قذىً لطرفي مسهد ... وكأن هذا فيه سيف قاضب .

الحاكم أبو سعد .

عبد الرحمن بن محمد بن دوست .

ليس اليوم بخراسان أدب مسموع إلا وهو منسوب إليه متفق بالإجماع عليه وكان أصم أصلخ يضع الكتاب في حجره ويؤديه بلفظه . فيسمع ولا يسمع كالمسن يشحذ ولا يقطع . وكان والدي C من المختلفين إليه والمغترفين مما لديه والمخترفين لثمار أغصان بنان يديه . ورأيته أنا وقد طوى العمر ومراحله وبلغ من الكبر ساحله . ولم أتزود منه إلا الإكتحال بطلعته وكأن فضة ناظري بعد منقوشة بصورته . فمما أنشدني له الأديب يعقوب بن أحمد أيده ا وهو من أعيان تلامذته الرماة من جعبته النحاة إلى كعبته قوله : .

لما رأيت شبابي ... يهيم في كل واد .

عجبت من شيب فودي ... ومن شباب فؤادي .

ولم أسمع في الكناية عن مقيل المتوفى بدهليز الآخرة أملح من قوله في الأمير أحمد الميكالي لما بنى المشهد بباب معمر سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة : .

حسدوه إذ لم يدركوا مسعاته ... لما ابتنى دهليز باب الآخره .

وتيقنوا علماً بأن وراءه ... من جنة الفردوس داراً فاخره .

قلت : والحاكم أبو سعد كما أثنى على نفسه فقال : .

ولقد شربت من العلوم بأنقع ... وسقيت غيري من علومي أنقعا .

وحويت آداباً لبست جمالها ... وبهاءها وحلفت ألا أنزعا .

وله يرثي الشيخ أبا منصور الثعالبي رحمة ا عليهما : .

كان أبو منصور الثعلبي ... أبرع في الآداب من ثعلب .

ليت الردى قدمني قبله ... لكنه أروغ من ثعلب